

والباعث للحيرة أن كل ذلك جرى باسم التحضر "والعصرنة"، حتى غدت "العبثية" (Nihilism) سحر العصر الساري كالنار في الهشيم.

نعم، قد صار النورسي طبيباً حكيماً، مفكراً، وباحثاً عن الحلول، وفاحصاً ومشخصاً، ثم واصفاً دواء هذه الأمراض، لزمن الفتن والهرج، كان الشعب فيه يعيش حمى الضعف الفكري والمهموم الاجتماعية، ويُسلط عليه مئات الحوادث المرعبة في أنحاء الوطن كافة، ويئن تحت ركام القيم الإسلامية والمالية التي تهدمت فوق رأسه. فهو رجل عاش منذ البداية مشدوداً دائماً، مفكراً، مقدماً الحلول البديلة للدولة والمجتمع، ساعياً في تلقين هذا الشعب المجيد لكن الفقير حظاً، وهذه الدولة الشائخة لكن الآفلة طالعاً، دروس ماضيه الرحيب والغني، إذ يرى حيرة الأجيال المسكينة المضطربة قلقاً تحت المصائب والنكبات المهولة التي أعدتها السنون السوداء الطويلة وجهزت لها، فتتخبط في وديان العجز والضلالة والشك، وكلما أرادت الخلاص دفنت نفسها في أحوال أزمت أعمق... يرى حيرتها، ويستشعرها، ويصغي إلى صوت ما يراه وما يستشعره.

ساح بديع الزمان في أرجاء كثيرة من البلاد منذ عهد الدولة العلية العثمانية، بمدنها الكبيرة أو قراها القاصية، وبنواحيها التي تعج بالبشر أو مناطقها القليلة أنفوساً، فرأى حيثما حل سريان الجهل في الناس وتضورهم في الفقر وحد الضرورة، ونهشهم وإفنائهم لبعضهم بعضاً بأنواع التفريق، فخاف وذعر. فأراد أن يشحن تلك الجموع التعيسة بروح العلم، باعتباره مفكراً واعياً بأحوال العصر. والتفت إلى معضلة الفقر والحاجة والاقتصاد. وبحث عن حلول التفريق وصار داعية يتنفس وحدتنا في كل زمان وبلا توان... ولم يترك شعبنا وحيداً